

الفصل السادس

عمل بولس الحواري

(أ) استقلال بولس عن الحواريين الفلسطينيين - موقفه الأول تجاههم - كيف وجه برنابا نشاطه - حياة بولس كمبشر .

(ب) ما أفاده من تلك الحياة - مشكلة دخول غير اليهود في الإيمان - كيف دفعت هذه المشكلة بالفكرة المسيحية الخاصة بالبعث إلى أن تصبح ديناً متميزاً - عقيدة بولس المسيحية تسير في نفس الاتجاه - كيف كان يدرك شخصية المسيح ورسائله - « المنقذ » و « ابن الله » ، والتكفير عن الخطايا - جوانب « الفنوصية » في هذه العقيدة .

(ج) تأثير طقوس وشعائر الشركين الذين اعتنقوا المسيحية على فكرة التعميد والقربان عند بولس - إلى أي حد يمكن اعتبار بولس مؤسساً للمسيحية .

(١)

تخبرنا مجموعة « أعمال الرسل » بأن المكان الذى تم فيه تحول بولس إلى المسيحية كان على طريق دمشق ، وأن دمشق كانت مركز نشاطه الأول . ولا يضيرنا تصديق روايتها فى هذا . فالأمر الذى يهمنى هو ملاحظة أنه لم يتدرب على التبشير بالمسيحية فى القدس أو على أيدي الحواريين الاثنى عشر ، وأنه لم يعد نفسه تابعاً لهم . لقد أيقن أن عيسى نفسه ، المسيح الممجد ، نصبه حوارياً بإرادته الخاصة ، فهو لذلك يرفض أن يشكك أحد فى هذا التشريف ، كما يشعر بأنه فى غير ما حاجة إلى إرشاد أو نصيح من بشر آتياً كان . ولندكر هنا تصريحاته المترفعة الواردة فى « الرسالة إلى أهل غلاطية » (١٠/١ وما يلي) : « . . . هل أنا أبشر الإنسان أو الله ؟ أو هل أريد أن يعجب بى الإنسان ؟ لو أفى ظلمت إلى الآن موضوع إعجاب الإنسان ، لما كنت خادماً للمسيح . أوكد لكم إذن يا إخوتي ، أن الإنجيل الذى أبشربه ليس من الإنسان ؛ فإنى لم أتعلمه من الإنسان بل ألهمه إياى عيسى المصلوب .

« . . . عندما شئت إرادة الذى اصطفانى ، يوم كنت فى بطن أمى ، ونادانى بفضله ، أن يظهر ابنه فى ذاتى ، حتى أبشر بالنبا الطيب (لمحيته) فى ديار المشركين ، عندئذ لم أشاور اللحم والدم (بمعنى : لم أشاور أى إنسان) ، ولم أصعد إلى القدس نحو (هؤلاء الذين كانوا) حواريين قبلى . . . لم أصعد إلى القدس للتعرف على بطرس إلا بعد ثلاث سنوات » .

ولنلاحظ من ناحية أخرى أن جوهر التعاليم المسيحية اقتصر بالتأكيد على

مجموعة بسيطة من الجمل ، نرجح أن بولس كان على علم بأهمها قبل رؤياه الحاسمة ؛ ولذلك لم يجد عتاً في القيام فوراً بتدريس ما أصبح يؤمن به . ولكنه بسهل علينا أن ندرك الحافز الذى دفع بأهل القدس - دون أن يرتابوا في إخلاصه لدينه الجديد - إلى التحفظ فيما يتعلق بحقيقة ما ادعاه من رسالة ، وإلى عدم الاقتناع في يسر بحديثه الواثق عن عيسى وكأنه عرفه مثلاً عرفوه وأقام بحواره مثلاً أقاموا ، وهو الذى لم يحظ من ذلك بشيء فلما رأى ، في أعقاب سنوات ثلاث ، أن يصعد إلى القدس ، لم يجد في مجتمع الحواريين المحدود بها سوى نظرات الحذر والتشكك ؛ ولولا برنابا لما استطاع حتى الاتصال بهذا المجتمع : فقد أعجب هذا الحوارى بحجاسة بولس وقوة يقينه ، فسار به إلى بطرس ويعقوب اللذين رأيا استقباله والاعتراف برسائله . ومنذ ذلك الحين كان ولا شك يفترق عن الحواريين في « الأمور الخاصة بعيسى » أى أنه كان يتعلق بصورة المسيحية التى رسمها الهيلينستيون ، والتى كانت أوسع في أبعادها من صورتها لدى الحواريين . وتروى لنا « أعمال الرسل » (٢٩/٩) : أن العروض التى قدمها لآرائه في معابد القدس ، معابد اليهود التى كان يرتادها الهيلينستيون ، أثارت ضجة كبرى اضطرب بولس بسببها إلى الإسراع في مغادرة المدينة . وارتحل إلى الشام وإلى سيليقيا ، أى إلى أنطاكية وطرسوس . وفي هذه المدينة الأخيرة جاء إليه برنابا ، بعدما رأى من أمر المسيحية في أنطاكية وما كشفه له هذا من آفاق المستقبل بالنسبة إلى العقيدة الجديدة في العالم اليونانى . وكان برنابا رجلاً مَعْيَاً ويا ليتنا نعرف عن حياته المزيد . فالفضل يرجع إليه في إقناع بولس بأن يقوم بنشر كلمة عيسى الطيبة بين أرجاء العالم ، وبأن يبدأ من أجل ذلك حياته العنيفة كمبشر في آسيا الصغرى وفي اليونان ، حتى

منعته عن ذلك السلطات الرومانية في القدس . . كان يرتحل من بلدة إلى أخرى ، ولا يقيم بضعة أيام في أى منها إلا حيناً يجد جاليات يهودية هامة . وكان يبدأ بالحديث في المعابد فيثير فيها عادة لدى اليهود المخلصين غضباً عتيفاً على ما يسميه بـ « إنجيله » . وعندما يستطيع أن يهدئ من روعهم ويطمئن إليهم لفترة ما ، نراه يحاول إقناع من يأتي إليه من طلاب المعرفة ، ويتحدث إليهم في بعض البيوت الخاصة . فإذا ما نجح في دعوته إلى درجة ترضيه ، أقام بالمكان بضعة أشهر - كما فعل بالنسبة إلى كوريشيا - أو عاد إليه بعد حين - كما فعل بالنسبة إلى أفسوس . وفي أثناء ذلك كله كان يكتب سائر الكنائس التي « غرسها » ، في نشاط يزداد أو يقل حسب أهميتها ، بغية تدعيمها في إيمانها وإرشادها إلى جادة الحق عندما تخرج عنها . وليس من هنا أن نفضل حياة بولس هذه ، العامرة بالنشاط ، الحافلة بالمخاطر والمغامرات ، البالغة الحصونة ولكن علينا أن نحاول إدراك ما تعلمه منها .

(ب)

علمته هذه الحياة بادئ ذي بدء ، وفي وضوح تام ، حقيقة لم يكن الحواريون الاثنا عشر ليتقبلوها في سهولة ، ولم يكونوا ليدركوا أبعادها مثل إدراكه . تلك الحقيقة هي : أن « المتقين الله » كانوا يؤمنون في سهولة بفكرة « المسيح » ، وكانت غالبية اليهود الخالصين يضعون على آذانهم وقلوبهم غشاء عندما يدعوه المسيحيون إلى ذلك . فهل كان على الأتباع . والحال هذه ، أن يتركوا اليهود في ضلالهم يعمهون ، ويحملون دعوة الحق خارج ديار بني إسرائيل ؟ وإلى جانب المريدين من « المتقين الله » - الذين امتازوا على الأقل

بثقافتهم اليهودية - كان لا بد أن يأتى إلى الإيمان الجديد وفود من المشركين البسطاء . فهل للمبشرين بالمسيحية أن يقبلوهم فيها ويعدوهم بنصيبهم من مملكة الله ؟ هل يصبح هؤلاء الأجانب ، الذين يجهلون شريعة موسى ، أصحاب حق فى ميراث أمة « يهوه » ؟ . . لا غرابة أن نرى الحواريين الاثنى عشر ، وهم الذين أشربوا بتعاليم عيسى وظلوا على يهوديتهم العميقة ، يستنكفون كثيراً من مثل هذه النتائج التى توصل إليها بولس . ويبدون أمامها تردداً قوياً ، إلا أنه فرضها عليهم فرضاً ، إذ استطاع إيجاد البراهين المقنعة بشأنها معتمداً على تحليل أوجه النجاح التى لمسها خلال رحلته التبشيرية الأولى فى ربوع آسيا الصغرى ؛ ثم إن مجتمع القدس كان يظن أن روحاً إلهية تسير الحوارى الثالث عشر فيها يقوم به من أعمال . وكان هذا المجتمع فقيراً ؛ وكانت كنائس بولس تضم أحياناً بين أتباعها أثرياء القوم وكرامهم ، وكان الحوارى خبيراً بأساليب حثهم على مساعدة الكنيسة الأم . ومن ناحية أخرى ، كيف لا يعترف إنسان بفضل تلك القوة التبشيرية بعد أن نشرت اسم المسيح الممجد فى كل تلك البلدان المختلفة ؟ ولما أصبح مبدء دخول المشركين فى الدين الجديد مقبولا وجد أنه من الصالح تسير تطبيقه . وكان بولس على علم بأن عملية الختان لا يرضى عنها أهل اليونان ، وبأن أغلب أحكام الشريعة اليهودية للحياة العملية لا تتفق مع عاداتهم وأساليب تفكيرهم ؛ فلم يلبث أن آمن بأن تعاليم هذه الشريعة قد نسختها تعاليم المسيح ، بل بأن هذا المسيح أتى خصيصاً ليبدل عهداً قديماً بعهد جديد . وأذعن الاثنا عشر لبولس مرة أخرى فقبلوا فكرة إعفاء الأتباع الجدد فى ديار الوثنية من أحكام شريعة اليهود . وكان المعنى الضمنى لهذا الإجراء : التفرقة بين المسيحية واليهودية ودفع الأولى إلى أن تصبح ديناً متميزاً .

وصارت هذه النتيجة أمراً محتملاً بفضل نظريات بولس في المسيحية ، تلك النظريات المتأثرة بالفكرة الهيلينستى ، والتي غيرت تغييراً عميقاً من تصوير الحوارين الاثنى عشر لعيسى وحياته وموته . ولم يلبث الداعية أن أدرك أن فكرة البعث وحلول مملكة الله لا تهم الإغريق كثيراً ؛ بل لم تكن لتجد لها تفسيراً ودعامة إلا بمزجها في عناصر الأمل القومي اليهودى . وإذا أريد للمشاركين أن يفهموها كان لا بد من توسيع مداها وتقريبها من بعض المفاهيم المعتادة في تعاليم « الأسرار » الوثنية : فيقدم المسيح لا على أنه الرجل الذى نفخ فيه « يوه » من قوته نجدة للشعب المختار في محنته وتمكيناً له من مضطهديه ، بل على أنه مبعوث الله حقيقة ، أرسل ليحمل إلى الناس جميعاً « الخلاص » واليقين بحياة أخرى سعيدة تجد فيها الروح - على الأخص - تحقيقاً كاملاً لما تطيح إليه من المصير الأمثل ، ورأى بولس بوضوح أيضاً : أن الأتباع الجدد من المشاركين لم يكونوا ليتقبلوا كل القبول « فضيحة الصليب » ، وأنه يجب تفسير ميتة عيسى المشينة - التى لم يكف الأعداء بطبيعة الحال عن الرجوع إليها - تفسيراً مرضياً يجعل منها واقعة ذات مغزى دينى عميق . وأعمل الحوارى فكره في هذه المشكلة المزوجة وذلك بطبيعة الحال حسب الاتجاه الذى رسمه له مجتمع المهجر « الهيلينستى » ؛ ووضع لها حلاً كان له صدق بالغ المدى : لقد تجاهل فكرة « عيسى الناصرى » . التى أغرم بها الاثنا عشر ، ولم يتجه إلا إلى « عيسى المصلوب » فتصوره شخصية إلهية تسبق العالم نفسه في الوجود ، وتمثل نوعاً من التشخيص لروح إله ؛ تصوره « رجلاً . . . رجلاً سماوياً » ، احتفظ به الله إلى جانبه أمداً طويلاً ، حتى نزل إلى الأرض ليشهق فيها حقاً بشرية جديدة يكون هو « آدمها » . وقد عثر الحوارى على العناصر الجوهرية لكل هذه

التركيبات الفكرية في مجموعة معينة من التصورات المعتادة في « الأسرار » عثر عليها ، في غالب الظن ، دون أن يبحث عنها ، وكأنها نتاج طبيعي لتفاعلات في ذاكرته وفي عاداته الفكرية . وإن النصوص التي تلقى اليوم أقوى الأضواء على العقيدة المسيحية لبولس حسب ما شرحناها به ، لهى النصوص « الباطنية » ، أى : المأخوذة عن « الأسرار » نفسها .

وهذه العقيدة تنتهى - إذا سمح لنا باستخدام هذا التعبير - إلى ثمرة تبعث كثيراً على الاستغراب ، تلك هى : أن السيد عيسى يصور لنا ابناً لله . ولكن فكرة الله ، بالنسبة إلى بولس ، تدخل ضمن ميراثه من العقيدة اليهودية . وقد نتج عن هذا أن التوحيد اليهودى يفرض نفسه على عقله فرضاً مطلقاً سابقاً لكل الأمور الأخرى . والإله عنده هو « الأعلى » المتميز تماماً عن الطبيعة والذي لا يتشرف فيها على أية صورة من صور وحدة الوجود . فكيف إذن يتأتى تصور أن يكون له ابن ؟ أو - بعبارة أخرى - كيف تفهم علاقة البنوة التي يراها بولس بين « السيد » والله ؟

وقد يميل ، بادئ ذى بدء ، إلى الاعتقاد بأن الأمر لا يتعدى أسلوب حديث معين أو صورة بلاغية . فاليهود كانوا يطلقون عبارة « خادم يهوه » على كل إنسان يظنون لديه « إلهاماً » منه . والتوراة « السبعينية » كثيراً ما تترجم هذه العبارة إلى اليونانية بالكلمات التالية : $\pi\alpha\iota\varsigma \tau\omicron\upsilon\tau\omicron\varsigma$ وكلمة $\pi\alpha\iota\varsigma$ تعنى في وقت واحد « خادماً » أو « طفلاً » ، تماماً كالكلمة اللاتينية *puer* . وعلى هذا يكون التطور في اللغة اليونانية من $\pi\alpha\iota\varsigma$ ، أى « طفل » ، إلى $\delta\omicron\upsilon\lambda\omicron\varsigma$ أى : « ابن » ، أمراً في غاية من البساطة . وقد حدث مثل هذا التطور اللفظي فعلاً في النصوص اليهودية - المسيحية (كمجموعة « أعمال الرسل ») عندما

نقل بعضها إلى رسائل بولس ^(١) . إلا أن التحليل الدقيق لكتابات صاحبنا يدل على أنه كان أكثر عمقاً في التفكير من أن يتنزل إلى مثل هذا التلاعب الهزيل بالألفاظ . ويكفي لإثبات ذلك أن نذكر النص المشهور من « الرسالة إلى أهل روما » (٣٢/٨) ، حيث يقول : إن الله « لم يعف ابنه نفسه وضحي به من أجلنا جميعاً » . ولكن بولس لم يكن ليدرك في ذلك الوقت كل ما ترتب على مفهوم « ابن الله » بعد ذلك من مشاكل في فلسفة الدين لا تحصى . وهذا أمر يجب ألا ننساه أيضاً ؛ ويترتب عليه احتمال أنه لا يستخدم التعبير إلا بمعنى تقريبي ، يحاول به أن يفصح قدر المستطاع - بإنشاء مقارنة ضمنية لاتبعد عن الذهن البشري - عن علاقة « فوق بشرية » لا يجد لها الاصطلاح الجامع المانع الذي يرضيه .

أما ما يجب تجنبه في هذا المجال فهو القول بأن هناك خلطابين « السيد » وبين « الله » ؛ فمثل ذلك الخلط لا يمكن تصوره لدى بولس الذي لم يكن لتخطر على باله فكرة « الثالث » . إن « السيد » ، عنده ، يهيمن عليه الله (انظر « الرسالة الأولى إلى أهل كورنثيا » ، ٢٣ / ٣) ، وهو طوع أمر الله « حتى الموت » انظر « الرسالة إلى أهل فيليبا » ٨ / ٢ ، وخاضع له تمام الخضوع (انظر « الرسالة الأولى إلى أهل كورنثيا » ، ١٥ / ٢٨) . ولا نجازف بالقول عندما نرى أن نص « الرسالة الأولى إلى أهل كورنثيا » (٦ / ٨) يحكم سائر جوانب المسألة . وفيما يلي هذا النص : « بالنسبة إلينا نحن على الأقل ، ليس هناك سوى إله واحد ، هو الآب ، منه كل شيء ونحن فيه ؛ وليس هناك سوى سيد واحد ،

(١) تعبير « ابن الله » لا يرد سوى مرة واحدة في « أعمال الرسل » (٩ / ٢٠) ويقدم لنا في تلك المجموعة باعتباره تعبيراً خاصاً ببولس ، وهذا أمر جدير بالملاحظة .

هو عيسى المصلوب ، به كل شيء ، ونحن به . وهكذا ، فهما بلغ أمر « السيد » من خطورة ووجوب بالنسبة إلى عمل الله ، فإنه لا يتساوى معه قط . ولكنه يمثل روحه ؛ و « الرسالة الثانية إلى أهل كورنثيا » (١٧ / ٣) تخبرنا بأن « السيد هو الروح » . ولا يستطيع بولس أن يأتي بم يقرب أكثر من هذا بين اللفظين البالغين في السمو أقصى درجاته ، وهما « السيد » و « الله » ؛ وتلك هي بالذات العلاقة الوثيقة التي عبر عنها بلغة البشر عندما قال : إن « السيد » هو « ابن الله » ، دون أن يفترض هذا التعبير إيماناً منه بنظرية البنوة في معناها الحرفي .

وإذا أردنا التحديد وجب القول بأن بولس كان يرى أن « السيد » يمثل بمفرده « صنفاً من أصناف الخليقة » ، يعتبر أقرب صنف إلى الله ، ويمكن وصفه بـ « إلهي » . ومن ناحية أخرى ، فمن المؤكد لدينا أن الاعتقاد بألوهية المسيح بعد ذلك كان لا بد له من النمو ، إذ بدا تصوير بولس له مشوباً بالكثير من التردد والنقص ، بحيث لم يقدر له مقاومة الزمن . واتجهت تقوى المؤمنين في قوة ، دون ما إدراك للعقبات ، إلى تنشيط الإيمان بالوحدة بين « السيد » والله . ونحول عيسى بذلك إلى رسول الله بعث إلى العالم أجمع ، سابق للكون وللزمن ، تتمثل فيه الروح القدس التي تعتبر جوهره الرباني ، ويعمل على تنفيذ خطة الله الكبرى المتعلقة ببعث الإنسانية وخلاصها .

وهكذا أصبح موت عيسى واضح المفهوم : إن بني الإنسان لينوءون بثقل خطاياهم ، فلا يجدون سبيلاً إلى النور الإلهي . وقد أراد المسيح أن يهديهم السبيل ؛ فحمل عنهم آثارتهم وكفر عنها بعذابه وموته . وبالتالي ، كان على البشر أن يتوحدوا فيه - بالاطمئنان والحب قبل كل شيء - حتى يشاركوا في

فضله ويجدوا الرحمة يوم القيامة . وهكذا أيضاً أصبحت « الفضيحة الكبرى » المزعومة هي هي : السر الأعظم ، والهدف ، والعلة الأولى لنجى عيسى برسالته ؛ وليس أدل على ذلك من قول بولس بأن سائر عمله التبشيري لم يكن سوى (حديث للصليب) . ولم يكن هذا الحديث بالذى لا يتأثر به اليونانيون ، بل كان لابد له من أن يستثير عاطفتهم ؛ ولم يكن أيضاً ، في حد ذاته ، ليفرض شيئاً لا يرضى عنه الحواريون الاثنا عشر ، مادام قد حفظ لهم روعة ذكرياتهم الواقعية كلها ، وأضاف سموً وإجلالاً لم يكونوا بالغيه في صورة أستاذهم . سوى أنه أدى إلى تغيير جذرى لحدود ومعنى العقائدية الواسعة التى كانت غريبة ، بل مكروهة ، لدى البيئة التى عمل هذا الأستاذ ، كما وضع فى الوقت نفسه أسس تلك التركيبات التى عاش فيها المسيح . وكانت عقيدة بولس مع ذلك أقل تعقيداً وأقرب إلى البساطة - بل نسمح لأنفسنا بالقول بأنها كانت أقل ضرباً فى الخيال - من المذاهب التأليفية الكبرى التى عرفت فى القرن الثانى بأسماء أصحابها من أمثال فالنتين أو بازيليدي . إلا أنها مهدت الطريق لهذه المذاهب ؛ فقد أصبحت منذ ذلك الحين نوعاً من « الغنوصية » التأليفية و « إلهاما » يعتمد على تركيبات معينة .

(جـ)

وقد كتبنا ما فيه الكفاية ليدرك القارئ أبعاد الصورة التى أصبح عليها عيسى الناصرى تحت تأثير أساطير الشفاعة والخلاص الشائعة فى بيئة بولس . وكانت أكثر الطقوس فيها إثارة للعواطف تلك المتعلقة بفكرة التطهر وبمفهوم التضحية ، سواء منها التضحية المكفرة عن الذنوب ، بغية تهدئة الغضب الإلهي ،

أو المهداة إلى إله ليرضى ، أو أضحية التقرب التى من شأنها أن توحد بين الأتباع وبين إلههم وتبين أنهم جسم واحد أمامه ، وكان الاثنا عشر ، وهم اليهود الأتقياء ، يواظبون على ارتياد المعبد الأكبر ، ولا يخطر ببالهم أنهم بحاجة إلى طقوس غير تلك التى كانت تقام به ، إلا أنهم كانوا يعلقون أهمية خاصة على شعائر التطهر بال تعميد . ولقد أصبح قبول التعميد ، لدى الكنائس المقامة فى ديار الوثنية ، علامة اعتناق المسيحية ، وكان الاثنا عشر أيضاً عندما يلتقون فى دار أحد الإخوة ، « يطعمون الخبز جاعة » . واتخذ هذا التقليد الشائع بين بنى إسرائيل والذى نرجح أن عيسى كان يقوم به أيضاً عند مشاركته الحواريين فى الطعام - اتخذ فى معناه لديهم ثوب رمز للوحدة : وحدة بين أعضاء الجماعة ووحدة بينهم وبين المسيح . غير أن الدلائل كلها تشير إلى أنهم ، حتى ذلك الوقت ، لم يكونوا ليربطوا بصلة ما بين « كسرة الخبز » وبين موت المسيح ، ولم يحملوا التقليد فى ذاته قيمةً تبلغ به مستوى الشعائر القدسية ، كما لم يرجعوا أصل وجوده ووجوب القيام به إلى تعاليم أستاذهم .

وشعر بولس بضرورة الكشف عن المغزى العميق لتقليد « تناول الخبز جاعة » . ولقد وجد له تفسيراً ربطه برباط لا يتفصم إلى عذاب عيسى الذى تحمله لتخليص البشرية ، وغمره غمراً بذلك المفهوم الخصب للتضحية من أجل التكفير ومن أجل التقرب والمشاركة فى الذات الإلهية ، فجعل منه غاية لسرفيع ، وتذكرة ورمزاً حياً - أرادهما عيسى نفسه - فيما زعم بولس لما لقيه من عذاب الصليب . وتقول « الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا » (١١ / ٢٣) : « فى الليلة التى سلم فيها (إلى الرومان) أخذ السيد عيسى خبزاً ، وبعد أن شكر الله ، كسر هذا الخبز وقال : « هذا جسدى ، وهو لكم ، فلتفعلوا

ذلك دائماً تذكرة لى . وهكذا أيضاً تناول الكأس ، بعد العشاء ، وقال : « هذه الكأس هى العهد الجديد فى دمنى . فلتضعوا ذلك كلما شربتم : تذكرة لى ؛ ذلك أنكم كلما أكلتم من هذا الخبز وشربتم من الكأس ، كأنما تعلنون موت السيد ، حتى يأتى إليكم » . ولم يكن قد قدر لآى طقس من طقوس « الأسرار » الوثنية أن يذخر بمعافى وفيرة وبآمال جذابة ، مثل ما ذخرت به الطقوس الخاصة بالقرىبان لدى بولس ، غير أنها كانت من قبيل عائلة الطقوس الوثنية ، ولم تكن نابعة من روح الدين اليهودى ؛ ولقد أدخلت فى كنيسة الحواريين « قطعة من الوثنية » . ولكن المسيحيين تقبلوها أيضاً بصدر رحب لأنها أضافت إلى إيمانهم درجة أخرى من التسامى ، وإن أصبحت بعد ذلك موضوعاً أساسياً لتركيبات لاهوتية واسعة النطاق تولدت عنها عقائد كبرى عديدة .

وفى الوقت نفسه اتخذت طقوس الاغتسال للتعيمد معنى لا يقل عمقاً عما سبق ، ذلك أن بولس يقول فى « الرسالة إلى أهل غلاطية » (٣ / ٢٧) : « أما أنتم الذين عمدتم فى المسيح ، فقد ارتديتم المسيح » . وهذا يعنى أن المسيحي يتحد بالمسيح بواسطة التعيمد . ونحن ، فى قولنا هذا ، قد نتجاوز حدود النص الحرفية ؛ فبولس لم يجرؤ قط على القول بأن التعيمد يجعل من المسيحي « مسيحاً » ، مثلما تجعل طقوس التضحية بالثور فى عبادة سيبل من المؤمن بهاو « إلهاً هو أتيس » ؛ إلا أن مفهوم هذا التعيمد نابع من نفس وجهة النظر التى نفسرها مفهوم التضحية بالثور . فبالتعيمد « يرتدى المسيحي المسيح » كما يرتدى اللباس المقدس المنجى ؛ وهوينزل رمزياً إلى عالم الأموات بتغطيته فى النهر أو فى إناء التعيمد ؛ فإذا ما خرج بعد غطسات ثلاث - تماماً كما خرج

المسيح من القبر بعد أيام ثلاث - أيقن بأنه سوف يمجّد يوماً ، إن أراد الله له ذلك ، كما مجد المسيح .

وعليّنا أن نؤكد ، وأن نكرر التأكيد ، بأن بولس لم يكن هو المخترع الفرد لكل هذا ؛ وبأن الكنائس الهيلينستية السابقة له ، ومن قبلها جماعات اليهود النازعين إلى التأليف والغنوصية ، قد مهدت جميعاً لعمله وأنشأت الموضوعات الأساسية التي دار حولها تفكيره . ولهذا فنّ المبالغ فيه القول بأنه هو المؤسس الحقيقي للمسيحية . أما المؤسسون الحقيقيون للمسيحية ، فهم هؤلاء الرجال الذين أقاموا كنيسة أنطاكيا ؛ وإنّا لانكاد نلمح أسماءهم ، وقد طواها النسيان . إلا أن بولس كان يمتاز عنهم بنشاط أوسع أبعاداً وأوفر دقة ؛ فضلاً عن تفوقه الذي لا ينازع في إدراك معنى هذا النشاط ومداه . إنه لم يؤسس المسيحية إذا عرفناها بأنها تطويع فكرة الانتصار ومملكة الله اليهودية لفكرة الخلاص الهيلينية . ولكن ، بدون بولس ، كان من المحتمل أن لا توجد المسيحية .